قواعد نسج النّص عند حازم القرطاجني

الدكتور: معمر عفاس
جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف (الجزائر)

الملخص

النص من المصطلحات التي حظيت بالتفاتة منقطعة النظير لدى قدمائنا، حيث ارتسمت أشكال بحث قضاياه بتعدد المرجعيات التي أنشأت مدارس لغوية، كانت المدار الأصيل الذي طوق المصطلحات المختلفة ، والتي كانت محل معالجة توجت بآراء تعدت في كثير من الأحيان معيارية القاعدة،ليفتح مجال درسها في إطار رؤية ثانية،تبعث إلى فتح المضامين في إطار النظرة الكلية للخطابات وليس تناولها بشكل تفريعي، يحصر في بوتقة الجملة التي أدت دورا مهما في بدايات الدرس اللغوي الذي قدم في البداية على أرضية لم تخرج عن سليقية أصحاب النصوص وكذا متلقيها في آن واحد، من هذا المنطلق كان لزاما على من بادر لفتح معضلات النص أن ينهج نهجا من خلاله يبين بشكل لافت، أنه لابد من إظهار القواعد التي على أساسها يقدم النص كوحدة كبرى تظهر مغزاه المبحوث عنها في فكرة جوهرية .

الكلمات المفتاحية: جملة, مصطلح نسج, كلام,قصد، تواصل.

مقدمة

لقد لفت انتباه القدامى بعض القضايا المتعلقة بالنَّص، لاسيما ما كان مقرونا بمكوناته الجوهرية التي تشكل روحه وتضوي آفاقه،ومن بين الذين خاضوا في أبجدياته حازم القرطاجني،الذي تعامل مع وسائل النَّص البسيطة و المركبة،فنسيج النَّص باعتباره وحدة كبرى تتكوَّن من مجموع الجمل المعبَّر عنها، جعله يتخذ طرقا لها دورها في تأكيد مصداقية الرؤية الشاملة، حيث انطلق من أسس طبيعة اللغة في حدّ ذاتها لما لها من دفع حاصل يحرك العملية التواصلية، فكان منطلقه رفع اللُّبس عن كلّ ما له شأن في بناء النَّص سواء أكان خطابا عاديا أو خاصا يخصُّ الشّعر الذي يحمل في شكله ومضامينه أحداثا لغوية لابد من النَّظر إليها بشكل ينمُّ عن رؤية ثاقبة،تشغل كلَّ مهتم ببحث قواعد اللغة في إطار تأليفها المكتمل في نصوص .

كل هذه الاهتمامات لم تكن وليدة ظروف آنية بحتة بل كانت أبعادها تستند إلى مرجعيات لا يمكن الحديث عنها إلا من خلال طرح تساؤل يدور حول المرتكزات التي اعتمدها حازم في كلامه عن موضوع الأسس التي اعتمدها في نسج النص، فما المرجعيات الأولى التي ارتكز عليها حازم القرطاجني في تعامله مع موضوع تأليف النص انطلاقا من العبء الذي تحملته الجملة الى مرحلة بلوغ النص مبتغى تحقيق العملية التواصلية؟

وما القواعد التي اعتمدها في التأسيس لنص عربي خالص في إطار التدافعات التي حصلت، لاسيما ما تعلق بالتباينات الملاحظة على تعدد المدارس التي خاضت في موضوع اللغة بإسهاب دون الوصول إلى حد فيصل حصل حوله وفاق عام؟

من هذا المنحى، كان لزاما علينا أن نستدرج كل ما جاء في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء بقصد لفت انتباه المهتمين بأنَّ التعامل مع النص لم يكن وليد مراحل متأخرة بل شكل محورا رئيسيا في إطار الدرس العربي القديم، ومن أهم ما جاء على مدار الكتاب بخصوص قواعد بناء النص نورد ما يلي:

اللفظ

لا يختلف منظور حازم القرطاجني في تعامله مع اللفظ وكثير من اللغويين العرب، فقد ذهب إلى أنّ حرفة صناعة البلاغة لا يتوصل إليها دون الالتزام بإعطاء أهمية دقيقة للفظ في ذاته وذلك بتلك المزية الإلصاقية التي لا يمكن لأي كلمة ملفوظة أن تتخلى عنها، فاللفظ لديه يرتبط أشدّ الارتباط بالعلامة المتعلقة بتلك الصورة التي لا يمكن أن تكون إلّا الهيئة الذهنية صنيعها ودليلها في الواقع،بالنظر لما تؤديه في نقلها لمزايا خطابية منسجمة لتُكوّن وقعا ودلالة على النُّفوس المستقبلة، هذه الصور مصدر صفاءها يتجلّى من خلال موقعها النفسي المعبّر عن أي حالة قبليا، فكونها على هذه الصفة يجعلها بنفس المقدار عند المتلقين، الذين يؤكدون بدورهم على كمال الدلالة ووضوحها بنقاء أصلها،ممّا يؤكد على أن الصورة الذهنية تتوافق بحسب رأيه مع دلالات الألفاظ المعبرة على مسميات وأحداث في الواقع يقول:«يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفسه ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النّفوس من جهة هيأته ودلالته،ومن جهة ما تكون عليه تلك الصور الذهنية في أنفسها، ومن جهة مواقعها من النّفوس من جهة هيأتها ودلالاتها على ما خارج الذهن،ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنية صور لها وأمثلة عليها،ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النّفوس»[1].

اللفظ لديه هو العنصر إلهام والمكوّن الرئيسي لمكونات الشعر،كما أنّه وسيلة من وسائل الأداء الفني، أيضا لقد أبان عن العلاقة التي تربطه والمعنى، فهو يذكر بأنَّ اللّفظ يتبع المعنى،بشروط لازمة كأن تكون الألفاظ متمكنة، حسنة الدلالة على المعنى تابعة له،كما أنّ الألفاظ الحسنة ما عذب ولم يبتذل في الاستعمال، أيضا الألفاظ المستعذبة المتوسطة في الاستعمال أحسن ما يستعمل في الشعر،لمناسبتها الأسماع والنّفوس،وحسن موقعها منها[2].

هكذا فإنَّ العذوبة لديه معيار جوهري للّفظ،حتى وإن كان معناه غير مألوف يقول في هذا الشأن:«اللفظ المستعذب وإن كان لا يعرفه جميع الجمهور مستحسن إيراده في الشعر،لأنّه مع استعذابه قد يفسّر معناه،لمن لا يفهمه،ما يتصل به من سائر العبارة،وإن لم يكن في الكلام ما يفسّره لم يعوز أيضا وجدان مفسّره،لكونه ممّا يعرفه خاصة الجمهور أو كثير منهم،والإتيان بما يعرف أحسن»[3] هذا دون الألفاظ العلمية والصناعية

التي يتوقف تبيينها على أهل الوضع والاصطلاح،المعنى الذي كان محل تدخل حازم في كثير من المواضع،حيث شدّد النّفور من استعمالها في الشعر،لعدم تجاوبها والنّص الشعري المطبوع بمعايير لابدّ من إتباعها، قصد التوصّل إلى الرّسالة المبتغاة منه.

اللفظ والنظم

لم يهمل حازم تلك العلاقة الموجودة بين اللفظ والمعنى والنظم، فهو يقدم تصوّرا عاما يعتمد الرؤية الجملية للبنية الشعرية،ولمكانة وسائل الأداء الشكلية والمضمونية فيها مهما كان الغرض الشعري،لما له من دور في تبرير وتحقيق الجودة الفنية يقول:«واعلم أنَّ المنحى الشعري نسيبا كان أو مدحا،أو غير ذلك،فإنّه نسبة الكلام المقول فيه إليه نسبة القلادة إلى الجيد،لأنّ الألفاظ والمعاني كالآلئ والوزن كالسلك،والمنحى الذي هم مناط الكلام وبه اعتلاقه كالجيد له،فكما أنّ الحلي يزداد حسنه في الجيد الحسن،فكذلك النّظم إنّما يظهر حسنه في المنحى الحسن،فلذلك وجب أن يكون من له قوّة التَّشبُّه المذكورة أكمل في هذه الصناعة ممّن ليست له تلك القوة»[4].

تنمُّ هذه النَّظرة على مدى وعي حازم بتلك العلاقات التي لا ينعقد نظم الكلام إلاَّ بتوفُّر جميع عناصرها والتي أكّد فيها على مدى المرافقة التي يجب أن تكون بين اللفظ والمعنى لتحقيق ذالك الرباط الذي يجلي الحسن ويبدي مغازيه،بتحقّق النّظم.

أيضا فعلاقة المشابهة التي جاء بها حازم تقودنا إلى حد القول بأنَّ الألفاظ المترامية في سبك الكلام، لاسيما في مجال النظم تنبعث آثارها من خلال الصناعة النهائية للنص، الذي يخلد مختلف المعاني بمقتضيات أحوالها وتناسبها مع مختلف الأداءات الفعلية للكلام المقول.

بين النظم والأسلوب

يفرّق حازم القرطاجني بين الأسلوب والنظم،فهو يعيد الأول إلى المعاني و الثاني للألفاظ،فالأسلوب يتأتّى من خلال التعبير عن حالة من الحالات أو وصف من الأوصاف، وكيفية الانتقال من جهة لجهة أخرى،لذلك كانت نسبته لديه إلى المعاني بمكانة نسبة النظم إلى الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض،وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب[5].

وممّا يجلى عنده بخصوص النظم: حسن الاطراد ومراعاة المناسبة ولطف النقلة ومراعاة ما جرى العرب باستعماله في غرض من أغراض حتى صار كالمختص به،فلا يحسن إيراده في غرض مناقض لذلك الغرض،ومن ذلك ألفاظ مثل: السالفة و الجيد في النسيب،والهادي و الكاهل في الفخر و المديح،واستعمال الخدع والقذال في الذم وهكذا.

يُوجّه حازم على ضرورة مهمة لابد منها وهي احترام المعجم الشعري المناسب لكل غرض،والابتعاد عن ألاجترار ونبذ التقليد الحرفي غير المحبّذ الذي يقلل من الإبداع و

يضعف القدرات الذاتية،كما أنّه يجعل صاحبه تابعا لا يتميّز عن غيره بما له من قدرات في مجال بناء النصوص،بأسلوبه الذاتي الدال عل قدراته الذاتية.

المعنى

من خلال ما ذهب إليه حازم في باب حديثه عن اللفظ، فإنه أكد على التزام بعضهما بعضا في أداء الدور المحصل في حيثيات الخطاب، فالحاذق من يحسن تصريف المعاني وترشيد مآلاتها، يبرهن على ذلك باختيار الشعراء القبلي لأغراض نصوصهم،التي تعتبر بصدق منارات لتجلية المعاني سواء منها المستطرف أو المراد .

أيضا إنّ ارتباط سلوكات المتحدّث بالأحداث النّفسية والانفعالات المستمرة، تنتج معان مختلفة ترتبط بالحالات المختلفة(سلبا إيجابا)يقول:«يجب على من أراد جودة التصرّف في المعاني وحسن المذهب في اجتلابها والحذق بتأليف بعضها إلى بعض أن يعرف إن للشعراء أغراضا أول هي الباعثة على قول الشعر.وهي أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس... »[6].

إنَّ السياق له دوره في نظر حازم فالوقائع هي التي تحرّك في نفوس الشعراء ثائرة التأليف، وتنطق فيهم البواطن، فتجعلهم يتصرَّفون في صنيع اللَّفظ، حسب أحوال الأمور المحرّكة دون ترك أحوال المتحركين لها وكذا أحوال المحرّكات و المحركين معا،وأحسن القول وأتمه ما اجتمع فيه وصف الحالين يقول:«فمعاني الشعر... ترجع إلى وصف أحوال الأمور المحرّكة إلى القول أو وصف أحوال المتحرّكين لها أو إلى وصف أحوال المحرّكات والمحركين معا.و أحسن القول وأكمله ما اجتمع فيه وصف الحالين»[7].

لقد ميَّز أيضا بين المعاني الأوائل والثواني، حيث تحدَّث عنها،فهو يجعل المعاني الشعرية مستويين،غير أنه اختلف بذلك مع الإمام عبد القاهر الجرجاني،الذي سمى أحدهما أساسي جوهري والآخر مُكمّل،وهما ما اسماه بالمعاني الأوائل والمعاني الثواني.فهو يجلي طبيعة العلاقة وربطها بالغرض من حيث ارتباطه بالجوهر أو أداءه المهمة الثانوية المساعدة يقول:«والمعاني الشعرية منها ما يكون مقصودا في نفسه،بحسب غرض الشعر،ومعتمدا إيراده،ومنها ما ليس بمعتمد إيراده ولكن يورد على أن يحاكي به ما اعتمد من ذلك، ولنسم المعاني التي تكون من متن الكلام ونفس غرض الشعر: المعاني الأول، ولنسم المعاني التي ليست من متن الكلام ...لا موجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الأول ...ويصار من بعضها إلى بعض:المعاني الثواني،فتكون معاني الشعر منقسمة إلى أوائل وثوان » [8].

من هذا المطلق فرّق حازم بين المعاني، التي رأى بأنها تنقسم إلى أصلي له علاقة مباشرة بالمعنى المقصود، والذي لا يمكن للسّامع أن يصل إليه دون تفكيكه والثاني يعتبر مُكمّلا للأول وخادما له، فهو الذي ينير ويوضح الأول إذا ما أصابه بعض الغموض.

فإذا ما عدنا للمفهوم الذي طرحه عبد القاهر الجرجاني بالمعنى أو معنى المعنى كما ورد في الدلائل، فالمعنى الأول ما يوصل إليه دونما واسطة،أمّا مفهوم المعنى الثاني، فهو الذي يتوصل إليه عن طريق واسطة، تكون ذهنية في غالب الأحيان؛ لأنَّها الدَّليل على المعنى الأصلي المراد ؛ولأنَّ المعتد في هذه الحالة هو البحث عن المعنى الفني. يبرز الجرجاني الوظيفة الجمالية بإشارته إلى أنَّ كلَّ المعاني الأوَّل الظاهرة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي و الحلي وأشباه ذلك من وسائل تزيين الكلام،وأما الثواني التي يوما إليها بتلك المعاني فهي التي تكسي تلك المعارض وتزين بذلك الوشي و الحلي[9].

يذهب علي لغزيوي إلى أنّ حازم القرطاجني حقّ المعاني الثواني لديه أن تكون أشهر في معناها الأول،لأنّ معاني هذه ستوضح وتبين وتقرّب للمتلقي بمعاني الثواني الممثلة فيها، أو على الأقل ينبغي أن تكون مساوية لها لتفيد تأكيدا للمعنى الأول،فإن كان المعنى في الثواني أخفى منه في الأوّل قبّح إيرادها لكونها زيادة وحشوا في الكلام من غير فائدة،وبذلك تنعدم الوظيفتان اللتان تؤديهما المعاني الثَّواني وهما التَّوضيح أو التَّأكيد ؛لأنَّ المقصد الشعري،في المحاكاة والتخييل،لا يكون بإتباع المشتهر بالخفي،بل بإتباع الخفي بالمشتهر،أو المشتهر،بالمشتهر لزيادة المشتهر شهرة،أو تأكيد ما فيه من الاشتهار تجنّبا لمناقضة القصد؛ لأنَّ الواجب في المحاكاة أن يتبع الشيء بما يفضله في المعنى الذي قصد تمثيله به،أو يساويه،أولا يبعد عن مساواته،وهي أدنى مراتب المحاكاة[10] .

قانون التناسب ومستويات تفكيك النَّص الشعري عند حازم

فكرة قانون التناسب عند حازم:

يتبادر من خلال الرؤية الأولى التي افردها للموضوع،أنّه على يقين مستوفى الشروط،فيما يتعلق بالفهم الذي طرحه بشان تلك العلاقات المتبادلة المكونة للنص الشعري ومدى ارتباطها بعضها بعضا،غايته من ذلك إظهار مظاهر الجودة والجمال في الشعر لا غير،فهو يرى أنّه كلما وردت أنواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل،وتأليف متناسب،كان ذلك ادعى لتعجيب النفس،وإبلاغها بالاستماع من الشيء،ووقع منها الموقع الذي ترتاح إليه[11].

لا مناص بعد ذلك فهو يلحّ على مبدأ التناسب،باعتباره أساسا لكلّ نظم جيد،بل لكلّ شكل من أشكال الوحدة في النَّص الشعري[12]،ومن هذا المنطلق يكون التناسب قرين الوحدة،باعتباره حالة من التناغم بين العناصر التي يتألف منها النص الشعري،وفق نظام خاص مميّز، في صورة كلّية تضم المؤتلف والتباين،وتوقع التشابه بين ما يبدو مختلفا الأول وهلة،وهذا هو السبب في إلحاح حازم على التناسب في فهم المحاكاة، بحيث يقترن حسن المحاكاة في ذهنه بجودة التأليف من ناحية، وبالنسب و الاقترانات بين المعاني من ناحية أخرى، واقتران حسن المحاكاة بالمحاسن التأليفية أمر طبيعي عند حازم، لما لهذا

الشأن من دور حاسم في تضافر مجموع العناصر في حالة تناسبها لكي تقع من النفس الموقع التي تأنس له وترتاح.

إنّ قانون التناسب كما تحدث عنه حازم، يعتبر من الأسس النقدية التي يمكن للنظرية الشعرية العربية الارتكاز عليها،لكون شموليته من ناحية،فهو يأخذ بعين الاعتبار مجموع أبنية النّص الشعري المختلفة (الإيقاع، اللغة،المضمون)، جاعلا إياها في قلب تكاملي، تدور مقاصده حول البلاغة،أو ما أطلق عليه حازم (العلم الكلي).[13]

مظاهر التناسب عند حازم القرطاجني

التناسب في الحروف والألفاظ والعبارات

أ/ التناسب في الحروف:

لقد تنبّه حازم لتلك العلاقات التي تربط بين الأصل الجزئي في الكلام وبين ما اكتمل منه،فهو في كثير من المداخلات المستطردة لاسيما في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء،يثني على الدور الذي يؤديه الحرف باعتباره صوتا مؤثرا في تناسب العبارات و الجمل، كما اعتبره من أبرز ما يكمل به الشاعر نصه، فهو عن طريقه يحسن العبارة،ويضعها موضع الرّصف الجيد،فهو يتدرج منطقيا من البسيط إلى العميق ومن الشكل الصغير إلى الأشكال المقرونة بالخطاب الكلي الذي يتأتّى من خلال التركيب الكلّي يقول:«والتهدّي إلى العبارات الحسنة يكون بأن تكون للشاعر قوة يستولي فكرة بها على جميع الجهات التي يستكمل حسن الكلام بالترامي به إلى كلّ جهة منها،و التباعد عن الجهات التي تضادها،وتلك الجهات هي اختيار المواد اللَّفظية أولا من جهة ما تحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها و مقاديرها واجتناب ما يقبح في ذلك»[14].

يعتبر هذا المستوى أولا بالنسبة لمستويات النَّص الشعري؛لأنَّ التَّناسب بين الحروف المؤلّفة للألفاظ التي تتكوّن منها العبارات يمثل المنطلق الركني، والشاعر لا يمكنه تحقيق ذلك، إلاّ إذا كانت له قوّة يستولي بها على الجهات التي يستكمل بها دواته، ويصل على الغاية في تمكين التحسين لشعره،الشيء الذي لاح حازم عليه من خلال توطين مبدأ حسن التأليف وتلاؤمه، وهو مبدأ عام، سعى من خلاله على إبراز التناسب الموجود بين جميع الحروف وعلاقاته المتوفرة في مختلف التآليف.

ب/ التناسب في الألفاظ

لم ينته حازم عند الحروف وعلاقاتها المستفيضة،بل ذهب إلى أبعد من ذلك وهو مدى ما تصيبه هذه الأصوات من أبعاد بعدية، عند ائتلافها ببعض،فالألفاظ لديه لا تحيا وتتشكّل إلاّ إذا اكتملت بتلك الرسوم المنبعثة من الحروف،حينئذ يورد، نستطيع الحديث عن الألفاظ، فتناسب الفاض ينجلي من تناسب الحروف، فقد أرجع التناسب في الكلمات إلى:

أولا:ألاّ تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال،فتكون الواحدة في نهاية الابتذال. والأخرى في نهاية الحوشية و قلة الاستعمال.[15]

وقد لا يكون حازم مبتدعا في هذا الرأي الذي تداوله النقاد قبله،ولذلك فهو متبع لمن نادى بضرورة المحافظة على وحدة الأسلوب،وعدم الخلط بين الألفاظ والأساليب المتناقضة في القصيدة الواحدة.

ثانيا:أن تتناسب بعض صفات الألفاظ،مثل أن تكون الكلمة مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات،أو تتماثل الوزان الكلم،أو تتوازن مقاطعها[16].

ثالثا:أن تكون كل كلمة في مكانها وسياقها،قوية الطلب والاستدعاء لمل يليها من الكلم،وأليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها من ألفاظ أخر.

رابعا: يشير أيضا إلى مظهر آخر قد لا يدخل في نطاق التعليل و التَّفسير، فهو يرى أنَّ هذه الصفات التي ذكرها أو أكثرها قد تعدم من الكلم،وتكون مع ذلك متلائمة التَّأليف،لا يدرى من أين وقع فيها التلاؤم ولا كيف وقع،وليس ذلك في نظره إلاّ لنسبة وتشاكل ذلك بما يقع بين بعض الألحان وبعض،وبعض الأصباغ وبعض من النسبة والتشاكل،ولا يدرى من أين وقع ذلك.[17]

المتمعن في كل ما جاء به حازم يرى بأنَّ المسألة ذوقية خالصة،و الأحكام الذوقية لا داعي لتعليلها،لذلك فهو يخاف في كثير من تدخلاته أن يتصوّر الأديب أنّ وسيلة تحقيق التناسب هي التصنع الذي يخرج إلى التصنع و التكلف غير المجدي،فهو يستدرك الأمر بقوله:«أنّ التناسب أمر مرجعه إلى الشعور قبل كل شيء،مثل تشاكل الألحان و الأصباغ حتى ليحار الإنسان في وضع يده على العناصر الأساسية في تناسب النص الجميل، كأنما النغم أو الصورة تعطي تأثرها بمجرد الرؤية أو السمع،وتلك حقيقة الشاعر القادر[18].

يتجلّى بوضوح أنَّه كان أشدُّ نفورا من مشكلة التصنع والتكلُّف في الشعر المسالة النقدية التي أثيرت بكل قوة قبله؛لأنَّه كان ممَّن اتَّجهوا إلى الطبع الذي يبرهن على اقتدار الشاعر ويبرهن على عريكته وصفاء سجيته.

التناسب في العبارات

يرجع حازم هذا النوّع من التناسب إلى الشاعر من حيث تمكّنه من تأليف الألفاظ وصياغة العبارات،من هذا المنظور راعى بأنّه على الشاعر أن يلتزم مايلي:

-التسهّل وترك المتكلف،بحيث يكون اللفظ مطابقا للمعنى تابعا له،وان تجري العبارة من جميع أنحائها على أوضح مناهج البيان و الفصاحة.

-إيثار حسن الوضع و المبنى وتجنب ما يقبح من ذلك:ومن حسن الوضع اللفظي أن يؤاخي الشاعر في الكلام بين كلم تتماثل في مواد لفظها أو في صيغها أو في مقاطعها،فتحسن

بذلك ديباجة الكلام،ووضع اللفظ إزاء اللفظ الذي بين معنييها تقارب و تناظر من جهة ما لأحدهما إلى الأخر انتساب وله به علقة،وحمله عليه في الترتيب[19].

يذهب حازم إلى أبعد من ذلك، فقد حمّل الشاعر مسؤولية الربط بين الأصوات والكلمات ثم تأليف العبارات التي من شأنها أن تبدع في نص كامل له مقاصد جمّة يقول:«وبقوة التهدّي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة،فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ و الائتلاف والاستعمال المتوسط،والطلاوة تكون بائتلاف الكلم من حروف صقيلة،وتشاكل يقع في تأليف ربما خفي سببه وقصرت العبارة عنه،و الجزالة تكون شدة التطالب بين كلمة وما يجاورها،بالتقارب أنماط الكلم في الاستعمال»[20].

لقد فصّل في تلك العلاقات التي تربط بين المواد التي تعتبر الأساس الأول في تشكيل أي بناء من الكلام،المراد منه تأدية مقصدية معينة،فالشاعر الفذ لدى حازم الفطن الذي يملك القدرة على التأليف بالطبع وكذا امتلاكه لأمور ثانوية دون الطبع، كتمكنه من عمليات الرصف و الصياغة غير المتكلفة.

التناسب في المعاني

يخصّص حازم بابا مستقلا لبيان العلم بالمناسبة بين بعض المعاني وبعض في الأقاويل الشعرية، غير أنّه لا يرجع هذا التناسب إلى مجرد الائتلاف كما ذهب بالى ذلك سابقوه[21]،بل يرى « أنَّه قد يكون بالتَّماثل،وقد يكون بالتَّشابه، وقد يكون بالتخالف والتضاد،ويرى أنَّه كلما كانت المتماثلات أو المتشابهات أوالتحالفات قليلا وجودها، وأمكن استيعابها مع ذلك أو استيعاب أشرفها وأشدها تقدما في الغرض الذي ذكرت من أجله،كانت النفوس بذلك أشد إعجابا وأكثر له تحركا..ولا تجد النفس للمناسبة بين ما كثر وجوده ما تجد لما قل من الهزة وحسن الموقع،لكونها لا تستغرب جلب العتيد استغرابها لجلب ما عز»[22].

إنَّ صور التَّناسب بين المعاني،يُبنْ حازم بأنها تجليات النَّفس، تتباين من خلال تلك القبسات التي تتشكّل على انفراد لتظهر فيما بعد جسدا واحدا يخدم المعاني التي بدورها تتعامد من أجل خدمة الخطاب، مرتبطة بمقتضى حال المتكلمين مؤدية دورها سواء أكان المعنى المقصود سلبا أو إيجابا ومن هذا المنطلق يؤكد بأنّ«ما كان املك للنفس وأمكن منها فهو أشدّ تحريكا لها،وكذلك أيضا مثول الحسن إزاء القبيح،أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر،لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده،فذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا»[23].

ولعل الذي يؤكده حازم نهو ربطه لأحداث المعاني مع بعضها بعضا وكذا تكيده على أنه ليس من السهل أن الحديث عنها دون أن تتجاذب فيما بينها،لأنها مترامية في النفس مترابطة منطقيا لا يمكن الفصل بينها،وإلاّ اختل المعنى وتعسر على المتلقي فهمه.

من هذا المنظور يؤكد بأنه لا يمكن تحصيل المقاصد إلاّ بتآخي المعاني و تآلفها المستمر داخل التشكيل النّصي،كما أنه من غير المعقول أن نحصل معنى المعنى دون التأمل الداخلي لمغازي الألفاظ.

السياق النفسي والبعد التداولي:

إذا كان الشمول مبدأ اعتمد عليه حازم في مجال ربطه لمختلف الأحداث وتفسير من منطلق البعد النفسي، فإنّه كذلك لم يهمل البعد البعدي في تفسير مختلف ظواهر الخطاب المتجلية من خلال تداعيات التلقي التي تختلف باختلاف مقاماتها، فقد راعى ذلك البعد التي من شأنه أن يوطّد حقائق الخطابات وينجز أفعالها، فلا يمكن أن يصل الملقي إلى غاية مقصوده دون انو يرى لما يريد في الواقع أثرا، يتحدّث عن هذا المعنى من خلال إشارته بقوله«وهنا معان آخر،وهي أنحاء المخاطبات مثل أن يكون المتكلم مخبرا أو مستخبرا آمرا أو ناهيا داعيا أو مجيبا».[24]

ومنه نشير إلى أنّ الرجل انفرد بنظرة خاصة أعطت النّص حقّه في مجال التأكيد على أسبقية العرب فيما يخص النظرة النقدية للقصيدة، فهو أول من قسّم القصيدة العربية إلى فصول،أكد على تواجد أحكاما لها في البناء، كما أنّه أول من أدرك الصلة الرابطة بين مطلع القصيدة وما أسماه بالمقطع،و هو آخرها الذي يحمل في ثناياه الانطباع الخير و النهائي عن القصيدة ولابد أن تكون مواد الفصل:

- متناسقة المسموعات والمفهومات.
- حسنة الإطراد.
- غير متذبذبة النسج.
- لا يتميز بعضها عن بعض،التميّز الذي يجعل كل بيت كأنه متباعد عن الآخر.[25]

إنّ الشرطين الأخيرين من الشروط الأربعة شديدي الإلحاح على توفير تلك العلاقة الترابطية التي تحكم النّص،فإن غابت فإنّ النّص يشوبه التذبذب و يتخاذل عنصر النسج فيه،فتتباعد فيه خيوط الرّبط فيتهلهل، فيصبح غير متصل، فتغيب روحه و يطرأ ما يجعله يخرج عن إطار النّص المنظوم.

لقد اهتم أيضا حازم بالأسلوب، حيث تنبّه إلى أن حسن التركيب و التأليف صورة لها أهميتها الكبرى،ووجه إلى أنّ الكلام كلما كان متلائما غير متنافرا،متعادل الجزاء ومتواصلا،و متشاكلا ومتساويا،كلما أحدث في المتلقي نوعا من الإحساس باللذة و الإفادة الفنية فيحلوا يقول«وكلما وردت أنواع الشيء وضروبه مرتبة على نظام مشاكل و تأليف

مناسب،كان ذلك أدعى لتعجب النفس وإيغالها بالاستماع من الشيء،ووقع منها الموقع الذي ترتاح له»[26]

ما نلحظه من خلال مدارسة كتاب حازم، أنّه أفرد للّفظ قسما وللمعنى كذلك، كما أنَّ النّظم والأسلوب ؛يتّضحان من خلال قوله « ولقد أشرنا إلى بعض ما ينحو الشعراء نحوه فيما يرجع إلى أمور لفظية أو معنوية أو نظمية أو أسلوبية »[27]

من خلال ما أشرنا إليه أنَّه لم يشيد بنقد البيت الواحد بل تعدّت نظرته إلى ما أطلق عليه القصيدة من مطلعها إلى نهايتها،كما اهتم أيضا بنوها الداخلي،حيث انجلى ذلك من خلال مجمل الآراء التي قدمها في الموضوع حول المنحى الذي نحاه النص من ناحية البناء،تلك النظرة التي لمحت عند الغربيين المحدثين،فيما يخص الدراسات النّصية.

كذلك لقد اهتم حازم بالوحدة الشعرية،وأوضح العلاقات و الروابط بين الجمل المكونة لها،يقول جابر عصفور:« إنّ مفهوم حازم للوحدة الشعرية متصل بمفهوم الوحدة عند أرسطو في كتابه فن الشعر...ويبدو أن الذي ساعده على ذلك هو أن القصيدة العربية كانت قد تطورت عند الشعراء المحدثين إلى نوع من ترابط الجزاء،ألمح إليه حازم عندما أشار إلى أن شعر المحدثين أحسن مأخذا في التخلص والاستطراد من القدماء».[28]

أيضا لقد خاض في موضوع التأليف والتلازم في الكلام،فتحدث عن تلاؤم حروف الكلمة الواحدة، وكذا كلمات الجملة الواحدة،وأيضا الجمل بعضها مع بعض،إلى أن تشكل لنا وحدة منسجمة يقول:« ومن ذلك حسن التأليف و تلازمه،والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء:منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها و ائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة، تلاصقها منتظمة في حروف مختارة، متباعدة المخارج،مرتبة الترتيب،الذي يقع فيه خفّة وتشاكل ما»[29]

لم يغفل بذلك حازم الانسجام الصوتي،لأهميته المطردة في الربط بين المعاني، كما أنّه لم يقف عند حدود المستويات المعروفة، بل تعداها إلى المستوى التداولي،ويرى أنّ التأثير على المتلقي مرتبط بحسن ديباجته،وهي أمور تتعلق باللفظ و المعنى و النظم والأسلوب،ويرتبط أيضا باستعدادات و قابليات و التي تقترن بدورها بالحال و الاعتقاد الداخلي في الموضوع المراد توصيله.إن البعد التداولي لدى حازم يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياق النفسي أكثر و ما يجعله يقترب في كثير من تصوراته و آرائه،بما ذهب إليه العالم الهولندي فان دايك، الذي يدخل عناصر دلالية تداولية في وصفه و تحليله للنصوص،الشيء الذي يجعلنا نقول بأنّ حازم القرطاجني سبق بجهوده هذه الغرب بقرون.

خاتمة

لا يمكننا من خلال ما استقيناه ممَّا أورده حازم القرطاجني بخصوص القواعد التي اعتمدها في بناء وتشكيل النَّص كوحدة كبرى إلَّا أن نؤكّد على أنَّ تراثنا لم يهمل النّص وما تعلَّق به من وسائل عُدَّت من صميم البحث اللغوي الحديث، لكن معالمها الأولى كانت من عمق بحث قدمائنا.

كما أنَّ عرض مختلف الآليات التي توفَّرت لنا من خلال كتاب آراء حازم عبر مختلف تآليفه اللغوية والنقدية أظهرت قدرات ذات مستوى راق، لم تنأ عن معايير بشكل بعيد من ناحية المفهوم عن المعايير التي اعتمدها المحدثون ولاسيما منهم دي بوجراند ودريسلر بخصوص المعايير المعتمدة في التعامل مع مختلف الخطابات، المقرونة بين أطراف العملية التواصلية.

لقد أظهر كتاب حازم منهاج البلغاء و سراج الأدباء قدرته على أنّه أعطى رؤية ثاقبة قدمت آنذاك فكرة جديرة بالإتباع وهي الانتقال من فكرة اطراد القاعدة ومعياريتها إلى فكرة بحث نوايا صاحب النّص، ليس ذلك بإهمال النّحو ولكن بنظم الكلام وتأليفه في إطار مبدأ الإبانة والإعراب عمَّا يختفي من وراء قضبان النَّحو.

الهوامش:

---

1 منهاج البلغاء،ص17

2 ينظر: المصدر نفسه،ص81.

3 نفسه، ص29.

4 المصدر نفسه،ص342.

5 ينظر: نظرية الشعر والمنهج النقدي في الأندلس،حازم القرطاجني،علي لغزيوي،مطبعة سايس، فاس-المغرب-ط2007،01،ص93.

6 نفسه ص11

7 المنهاج ص،13.

8 نفسه،ص23

9 ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني،ص264.

10 ينظر:نظرية الشعر و المنهج النقدي في الاندلس، علي لغزيوي،ص96.

11 منهاج البلغاء،ص 245.

12 مفهوم الشعر،جابر عصفور،دار الثقافة للطباعة والنشر،القاهرة،1978،ص417.

13 قانون التناسب لحازم القرطاجني بين بنية الايقاع و التركيب اللغوي،علي الهاشمي،مجلة الحياة الثقافية-تونس-العدد،أكتوب1987 ص64.

14 منهاج البلغاء،حازم القرطاجني،ص222.

15 ينظر: المصدر نفسه،ص222

16 ينظر: نفسه،ص222.

17 نفسه، ص223.

18 قضية النظم و الفلسفة الجمالية عند حازم القرطاجني:دماهر حسن فهمي،.مجلة مجمع اللغة العربية-القاهرة- الجزء السابع و العشرون فبراير:1971،ص160.

19 منهاج البلغاء،ص223.

20 نفسه،ص223.

[21] لم يلتفت قدامة بن جعفر إلى ائتلاف المعنى مع المعنى؛لأنّه اعتبرهما عنصرا واحدا،وإنّما تحدث عن ائتلاف المعنى مع باقي العناصر المكونة للشعر وهي:اللفظ زالوزن والقافية

[22] المصدر نفسه،ص46.

[23] منهاج البلغاء،ص45.

[24] نفسه،ص14.

[25] ينظر: الأسلوبية ونظرية النّص،إبراهيم خليل،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت،ط1997،1،ص:56.

[26] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني،ص245.

[27] البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها،محمد العمري،ص:498.

[28] مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي،جابر عصفور،دار التنوير،بيروت،ط1983،3،ص201.

[29] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني،ص222.